النقد البنيوي

يعدّ النقد البنيوي الذي ظهر في القرن العشرين أول معلم من معالم الحداثة النقدية، وهو يختلف عن الشكلانية الروسية ومدرسة النقد الجديد وذلك أنّه نظرية نقدية مكتملة الآليات، وقد تأثر النقد البنيوي بالدراسات اللغوية التي جاء بها العالم السويسري دي سوسير بداية القرن العشرين كونه اتخذ من اللغة أساسا له لا كأداة تواصل وإنّما غاية في حدّ ذاتها تحيلك على معجمها الداخلي كنظام من العلامات تنتج الدلالة من خلال العلاقات القائمة فيما بينها.

إنّ البنيوية في مفهومها الواسع كما تذهب الناقدة فتيحة كحلوش هي القيام بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات والعقول واللغات والأساطير بوصف كلّ منها نظاما تاما، أو كلّا مترابطا، أي بوصفها بنى فتتم دراستها من حيث أنساق ترابطها الداخلية لا من حيث هي مجموعات من الوحدات أو العناصر المنعزلة ولا من حيث تعاقبها التاريخي.

فهي إذا تدعو إلى الاهتمام بالجوانب الداخلية للنص الأدبي بعيدا عن السياق الذي ظهر فيه، بل جعلت الإنسان/الكاتب/القارئ سجين اللغة حبيس أنساقها الداخلية الثابتة (سجن النسق).

قامت البنيوية على يد الناقد الفرنسي رولان بارث حيث قام بوضع أسس نظرية نقدية تنهل من اللسانيات الحديثة وبعض أفكار الشكلانيين، لتصبح بعدها مودة العصر مع جيل النسق (فيليب سولر، جوليا كريستيفا، جيرار جونيت، ميشال فوكو، تودوروف، جاك دريدا...) الذي شكّل ما يعرف بجماعة Tel Quel الفرنسية متزعما إياها الناقد رولان بارث، والمترجمة حرفيا بـ "كما هو" وهذه العبارة تعود على النص الذي يطلب ضرورة النظر إليه كما هو لا كما يجب أن يكون.

هل البنيوية هي وقف على النقد؟

يجدر الإشارة إلى أنّ البنيوية ظهرت مع دي سوسير الذي لم يشر إلى هذا المصطلح صنف من قبل من جاء بعده على أنّه بنيوي، وهكذا نجد اللسانيات البنيوية، البنيوية الشكلانية،

البنيوية التكوينية (مرحلة تالية للبنيوية الشكلانية)، البنيوية التوليدية، البنيوية النفسية، البنيوية في مجال الأنثربولوجيا...فهي كما يقول عنها الناقد جان بياجيه: «إنّه من الصعب إيجاد ميزة للبنيوية، ذلك أنّها ارتدت أشكالا كثيرة ومتنوعة»، وهو ما يعني أنّ البنيوية بارزة في كل المجالات.

هل البنيوية منهج، مدرسة، مذهب، فلسفة؟

يرجح الكثير من النقاد استخدام مصطلح بنيويات للتوضيح على أنّ البنيوية ليست واحدة، خاصة من منطلق فهم الناقد العربي فالمنهج البنيوي لايزال مشوشا ومتداخلا عنده مع مفاهيم أخرى كالفلسفة والعلم والاتجاه...

يتعامل الناقد فؤاد زكريا مع البنيوية على أنّها فلسفة وهو ما جاء في كتابه "الجذور الفلسفية للبنائية" إذ يرى أنّها تمتد إلى فلسفة كانط لأنها تبحث عن الأساس الشامل الذي ترتكز عليه مظاهر التجربة وتؤكد وجود نسق أساسي ترتكز عليه كل المظاهر الخارجية للتاريخ، وهذا النسق سابق على الأنظمة البشرية بحيث تستند إليه كل تلك الأنظمة زمانيا ومكانيا، أي أنّ هذا النسق قبلي بمعنى مشابه لما نجده عند كانط، أمّا الناقد كمال أبو ذيب فيحذر من أن تكون البنيوية فلسفة وإنّما هي طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، أو كما ينظر إليها الناقد بور ريكور على أنّها فلسفة دون ذات متعالية وهذا ما يسقط صفة الفلسفة عنها.

وكما لا تصلح أن تكون البنيوية فلسفة فإنها لا تصلح أيضا لأن تكون مذهبا وهو رأي الناقد صلاح فضل في قوله: «بالرغم أن بعض الباحثين المحدثين يرون أن البنيوية ليست مجرد منهج للبحث عن الأنساق في العلوم الطبيعية والإنسانية، لكنها بما تزود به الباحث من أدوات للتحليل تفتح أمامه الطريق كي يصل إلى نتائج نظرية تمثل في نهاية الأمر مذهبا متماسكا...قد يصفه بعضهم بأنه مذهب علمي دقيق، وقد يصفه آخرون بأنه فلسفي لاشتماله على نظرية منتظمة عن الإنسان والعالم...لكن زعماء النظرية أنفسهم يؤكدون أنّ البنائية

ليست مدرسة مذهبية، ولا حركة فكرية ولا ينبغي حصرها في مجرد نزعة علمية ولكن بوصفها منهجا».

ويخلص الناقد فضل ثامر بعد طرحه لعديد الآراء حول ما إذا كانت البنيوية منهجا أو مذهبا أو فلسفة إلى أنّها منهجا حديثا له ملامحه الواضحة والمتكاملة في الفكر الحديث قد تبلورت من الحوار مع نظرية سابقة، ومع علم أو مجموعة علوم مستقرة، كاللسانيات والانثروبولوجيا وعلم النفس مثلا لكنّها ظلت من الناحية الأخرى أداة للنظر والتناول والتحليل ولم تتحول إلى نظرية أو علم أو فلسفة أو ابستمولوجيا أو أي شيء آخر.

مقولات البنيوية:

موت المؤلف: من أبرز مقولات البنيوية هو فكرة موت المؤلف؛ أعلن عنها الناقد الفرنسي رولان بارث ولاقت ترحيبا كبيرا في المجال الأدبي والنقدي، وهي تعني الموت المجازي لصاحب النص فبارث أعلن أنّ «الكتابة قضاء على كل صوت، وعلى كل أصل، الكتابة هي هذا الحياد هذا التأليف واللّف الذي تتيه فيه ذاتيتنا الفاعلة، إنّها السواد/البياض الذي تضيع فيه كل هوية، ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب»، إذا فالكتابة هي إعلان عن الموت إذ يموت المؤلف حرفا حرفا وكلمة كلمة إلى أن تنتهي عملية الكتابة فتختفي تلك الذات الفاعلة ولا يبقى من المؤلف شيء سوى النص ذاته الذي يمثل نسقا مغلقا قائما على علاقات لغوية وتنظيم داخلي بعيدا عن أي تأثير شخصي أو اجتماعي أو تاريخي خاص بالمؤلف.

البنية: يعرفها جان بيجي على أنّها «نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا في مقابل الخصائص المميزة للعناصر، علما بأنّ من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك أو أن تهيب بأية عناصر أخرى تكون خارجة عنه».

الآنية ورفض التاريخية: عرف الدرس اللساني مقولتي الآنية/التزامنية والتاريخية/التعاقبية، حيث تعني الأولى دراسة اللغة في لحظتها الراهنة دون الاهتمام بتطورها الزمني، بينما تشير الثانية إلى دراسة تطور اللغة عبر الزمن وكيفية تغيرها، فأعطت اللسانيات الأولوية لمقولة

الآنية على حساب المقولة التاريخية على اعتبار أنّ الدراسة اللحظية للغة أكثر نجاعة وفائدة لفهم بنيتها الأساسية وعلاقاتها الداخلية.